

مختارات

عيسى مخلوف

تأملات في العزلة والصمت

عن «قصور الثقافة» في مصر، صدرت مختارات للشاعر اللبناني، بعنوان «تقاسم الصمت»، مطبوعة بميل ميثافيزيقي يجمعه بتجارب جورج شحادة وصلاح ستيتيه...

حسين بن حمزة

لعل صلاح ستيتيه عثر على التوصيف الصائب حين قال عن كتاب «عين السراب» لعيسى مخلوف: «إنه كتاب شفاف ومرتعش. كتاب الساعات على غرار كتاب الصلوات في القرون الوسطى، كتاب اللحظات الضائعة، لكن التي جمعت عبر الكتابة قبل لحظات من أفولها». شهادة مثل هذه تنتقل عدواها بسهولة إلى القارئ وهو يطالع المختارات الصادرة لمخلوف بعنوان «تقاسم الصمت» ضمن سلسلة «أفاق عربية» (الهيئة العامة لقصور الثقافة) - مصر. يضم الكتاب مختارات من ثلاث مجموعات سابقة هي: «عين السراب» (2000)، و«عزلة الذهب» (1992)، و«رسالة إلى الأختين» (2004)، إضافة إلى مختارات من مخطوطة شعرية بعنوان «زرقة ما قبل الفجر».

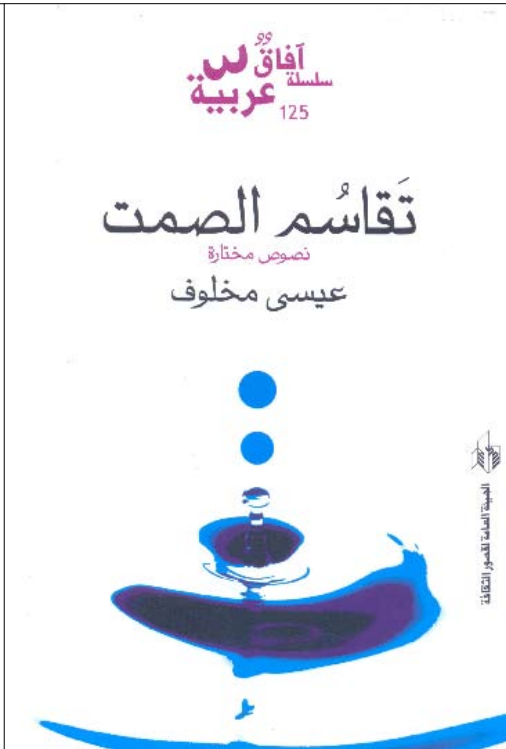
ننتبه إلى ميل جلبي لدى صاحب «نجمة أمام الموت أبطأت» إلى عناوين تشبه مناخات نصوصه وأجواءها. السراب والعزلة ترجمتان مناسبتان لصفة التأمل الطاغية في ممارسات الشاعر، وهو ما يظهر أيضاً في عنوان المختارات نفسها. العنوان هنا يستجيب لمعاني الشفافية والرعشة واللحظات الضائعة. إنها دعوة حميمة لتقاسم الصمت مع القارئ، نادراً ما يعلو صوت النص في تجربة مخلوف. كأنه يأخذ فكرة أو مشهداً ثم يلغي الصوت أو الضجة التي يمكن أن تصدر حصيلة ذلك.

لنقرأ: «في المساء، يقفل متحف (لاكاديميا) في البندقية/ تنطفئ الأضواء على لوحة جيورجيوني/ اللوحة في الظلام/ يرف جفن العذراء التي تدرك أن وليدها سيموت/ تخرج له تديها». إنها قصيدة صامتة تماماً لولا النامة الخفيفة في الخاتمة التي تسرب الشعر إلى السطور كلها. في قصيدة أخرى بعنوان «الغروب»، نستطيع معاينة الحصيلة نفسها: «ينحنين هناك/ في غفلة الغروب/ يبحثن عن مفاتيح/ اللواتي يتحركن في البعد/ كشعلة متمائلة/ لا نعرف هل يسكن الماء في النهر/ أم يأخذن النهر إلى النهدي». المعنى هنا يتحقق في إغراق المشهد في الظل والغياب والصمت. هكذا، نعود مجدداً إلى صفة الصمت.

الصمت هو أحد المكونات الجوهرية في تجربة هذا الشاعر اللبناني الذي نحا منذ البداية إلى جملة خافتة وملمومة على نفسها. جملة تمكث عنده هو أكثر من إسرارها إلى القارئ. جملة غير خاضعة لأي مبالغات أو تهويلات عاطفية ولغوية. الشاعر مشغول بتقطير الأفكار والحوادث الحياتية إلى مادة أكثر خلوداً. مادة مصنوعة من عناصر حلمية أو ميثافيزيقية. هناك رغبة دائمة في أخذ الواقع والأسئلة الإنسانية البسيطة والملموسة إلى فضاء التأمل والتأني، والتلذذ بتحويلها إلى نصوص عابرة للحديث، أو السبب الزمني الذي كتبت من أجله. كأن المفردات والصور تتخلى عن وظائفها الفورية المباشرة وتكتفي باحتمالاتها

جملة غير خاضعة
لأي تهويلات عاطفية
ولغوية

الإيحائية والسرية. ثمة ضوء وظلال في هذه النبيرة. لا يعلو صوت المفردات وهي تتجاوز داخل الصور والتوريات المتنوعة التي تزخر بها نصوص عيسى مخلوف. نتعمد أن نقول إنها نصوص، لأن الشاعر نفسه اهتدى في كتابيه الأخيرين إلى كتابة متفلتة من ضغط الكثافة والاختزال في القصيدة، وبيات مرتاحاً لإنجاز كتلة نصية على سطور كاملة، مستفيداً من السرد والاستطراد والشرح. الكتلة النصية تجعل الشاعر مرتاحاً أكثر في استثمار نبرته التي تميز العابر بالجوهر أو تستخلص الجوهر من العابر. نحس أن الشاعر لم يتخل عن سماته السابقة، ولكن جملة صارت مرنة



لمحات

◀ في «النظرية النحوية» (المنظمة العربية للترجمة - توزيع مركز دراسات الوحدة العربية) يحدّد جيفري بوول الخطوط الكبرى لدراسة نحو اللغة، ضمن إطار نظري تأسست عليه مدرسة القواعد التوليدية. أستاذ اللسانيات في جامعة هارفرد (الولايات المتحدة) وجامعة نيوكاسل (بريطانيا) يعرض بدقة في كتابه هذا (ترجمة مرتضى جواد باقر) مسائل النحو: أسسه، مناهجه، أدواته وأهدافه البعيدة بوصفه أحد أساليب التفكير المنطقي والنقدي، وأحد ميادين الإبداع

والتطوير اللغويين. كما يعرض الكتاب نظريات النحو ويقبلها على وجوهها الكثيرة، ليؤكد في الوقت نفسه أنه ليس هناك فرضية نهائية لا تقبل التغيير.

◀ في «قيادة المجتمع نحو التغيير - التجربة التربوية لثورة ظفار (1969-1992)» (مركز دراسات الوحدة العربية) تبحث منى سالم سعيد جعوب في «ثورة ظفار» المسلحة في سلطنة عمان بين عامي 1965 و1975. كان لهذه الثورة أبعاد متعددة، سياسية واجتماعية. تركز هذه الدراسة على البعد التربوي - التعليمي الموجه نحو «جمهور الثورة»، وعلى التجربة التربوية بين 1969 ونهايتها الرسمية عام 1992، من زاوية مركزية هي: قيادة المجتمع نحو التغيير. تميز جعوب في منهجيتها بين الاستبصار الفكري وأساليب العمل الميداني المحرّبة في البحوث الاجتماعية، في مقدمتها «مسح الخبرة».

◀ في مجموعتها القصصية الجديدة «حذاء صاحب السعادة» (الدار العربية للعلوم ناشرون)، تجعل سلوى البنا من التخيّل السردى وسيلة لإعادة بناء الهوية الثقافية العربية. في هذه المجموعة، تقرب قصص الكاتبة الفلسطينية من النماذج المتقدّمة والملتزمة ليس في الرواية الفلسطينية فحسب، بل في الرواية العربية أيضاً. تصف الكاتبة في قصصها بيئة تحفل بالموت والبؤس والمرارة والتفكك.

◀ أتى الصراع العربي الإسلامي مع أوروبا خلال الألف سنة الماضية إلى تكوين صورة سلبية ومشوهة لدى كل من الطرفين عن الآخر، أسهمت في بناء مواقف عنصرية ما زالت قائمة حتى عصرنا الحاضر. في «الأخر في الثقافة العربية - من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين» (دار الساقى) يقدم حسين العودات، عرضاً شاملاً لتطور صورة الآخر في الثقافة العربية، منذ ما قبل الإسلام وصولاً إلى مطلع القرن العشرين، مع ما يسمّى حركة النهضة العربية. ويخلص الكاتب والصحافي السعودي إلى أنّ كلا من الطرفين كوّن نظرتهم عن الآخر في ظروف صراع وحروب.

◀ في روايتها الثانية «سيدات القمر» (دار الآداب)، تتناول الكاتبة العمانية جوخة الحارثي موضوع الماضي والحاضر، وتجمع بلغة رشيقة بين مآسي بشر لا ينقصهم شيء، ومآسي آخرين ينقصهم كل شيء. كما تعنى الرواية بتوظيف التاريخ العماني وترصد التحولات السريعة للمجتمع الحديث، وتحاول الاقتراب من القضايا الحساسة كالتبعية والهوية.



أكثر. لا يزال التأمل استراتيجياً مفضلة لديه، وهي قادرة على تغذية نصوصه بالصورة المبتكرة. أحياناً تكون الطبيعة مادة هذه الصور: «أشعر أن ذلك الجبل الذي يؤلف زاوية مع جبل الشربين المحاذي له هو الذي يمسك بالبلدة الساكنة عند سفحه، بلدة الصيف هي، ولولاه لانحدرت وسقطت في الوادي». مع الطبيعة، تكتمل الدائرة التي يتحرك فيها الشاعر. وهو ما يسمح لنا بالتقاط صلة ما مع تجارب لبنانية أخرى، وخصوصاً تلك المكتوبة بالفرنسية. الميل الميثافيزيقي والتأملي يُنشئ فجوات يتسلل إليها جورج شحادة وصلاح ستيتيه وآخرون. هناك دوماً تلك الرغبة في جعل المعنى مفتوحاً وغامضاً في أن واحد، حيث: «تعود السفن إلى الشاطئ هامدة/ أولئك الذين بلغوا الضفة الأخرى/ ينظرون إلينا ويضحكون»، أو: «الشجرة التي تملأ السماء/ مقرّ الغياب/ حين تصعد إليها/ نكتشف أن أحداً لم يمت/ أن أحداً منا لم يولد». إنه سؤال الكينونة البشرية وقد تعرّض لسؤال الشعر، إذ «من يبلغ أقصى الحدود لا يعود يكتب بل يشتعل ويضيء».

قصيدة محتفظة
بخفوتها القديم
وسكينتها الداخلية

المراكب» في إنجازها، كما هي الحال في: «تحت أقدام المشاة/ يتكسر الورق/ الخريف يئن»، أو: «خارج المياه/ أبدأ ترقص السمكة/ الموت يحب الرقص»، وأيضاً: «بعد شتاء معدني/ صدى فأس في الحقل/ الفلاح يزهر»، بينما نجد تشتتاً في بعض القصائد، لنقرأ: «فرح الرعاة بالنار/ فرح النار بالرعاة/ المزاريب ناي ومزمار»، أو: «وراء نجمة مضي/ ولم يعد/ الشاعر اتجاه».

تقليب الزمن والوجود يسمح لطفولة الشاعر بالتسلل إلى داخل الكتابة، فتحضر قريته الكفرون: «منجل ومحراث/ فأس وإبريق ماء/ الكفرون عرق الجبين». الطبيعة، على أي حال، هي الخزان الأساسي للهايكو، وهي الملعب الأثير لدى الشاعر الثمانييني الذي تغريه نيتشوية «العود الأبدي». هل هي صدفة أن يكون نيتشه ألمانياً؟ حسين...

شعر

فؤاد رفقة: عود على بدء

لا تختلف نبيرة فؤاد رفقة في مجموعته الجديدة «تمارين في الهايكو» (دار نلسن)، عما اعتدناه في أعماله السابقة. الشاعر الذي مال منذ بداياته في مجلة «شعر» إلى لغة تسعى إلى ملامسة المطلق، يجد في الهايكو فضاءً إضافياً لقصيدته التي تتجول بين مفردات الزمن والكينونة والطبيعة والتأمل. لقد شغف صاحب «أنهار برية» بالشعر الألماني الممزوج بالفلسفة، ووجد فيه ما يلبي مزاجه وحساسيته. بطريقة ما، يمكن القول إن الهايكو والشعر الألماني محكومان بروحية قائمة على التأمل والتركييز والكثافة.

ثمة إشارة في نهاية المجموعة إلى «التمارين» كتبت في برلين. لعل هذا يعزّز التقارب المقصود بالمعنى الجغرافي أيضاً. كان فؤاد رفقة يسرب لغته إلى القالب الشكلي للهايكو، فيجد حفاوة وترحيباً جاهزين، ولا يشعر بأي غربة.